الخيانة

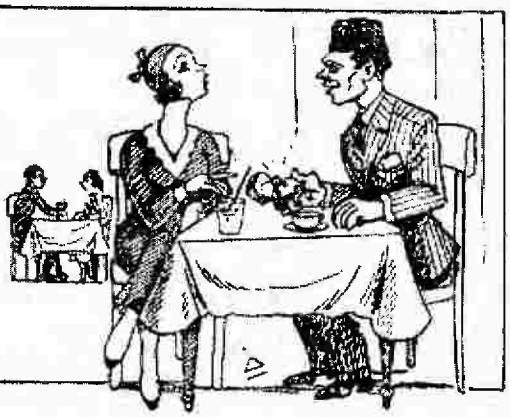

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

كان الحاضرون يجلسون حيث شاءوا من غرف الشقة الرحيبة ، فقد فتحت كلها — ما عدا غرفة النوم — وكان كل اثنين — كل فتاة وفتى — يختاران المكان الذى يريانه أوفق لهما وأطيب . فتحمل إليهما الخادمة طاولة صغيرة وترص عليها ما يحتاجان إليه من أطباق وأكواب ، ثم تجيئهما بشرابهما وطعامهما اللذين دخلا بهما ، فيأكلان ويشربان ويسمران ويرقصان — فان فى البيت فونغرافاً لا يستريح — ويظلان كذلك — « فى حمور وفى أمور » كما يقول ابن الرومى — الليل كله أو بعضه ؛ ثم ينصرفان راضيين شاكرين . فقد كان هذا اتفاق « صوفى » أو « صفية » — كما تؤثر أن تسمى نفسها — مع ضيوفها ، وكانت خياطة وكان الحال حسناً ، والأيام مقبلة عليها ، فجاءت من هى أبرع منها وأكيس وألبق وأقدر على الاستيلاء على أهواء الزبائن فركدت السوق وقل العمل ونضب المعين ؛ ثم خطر لها ان تسمح لمعارفها من الجنسين ان يسمروا عندها ليلتين فى الأسبوع — السبت والأحد — أى أن تجعل من شقتها نادياً خاصاً ، واشترطت أن تتقاضى من كل واحد وواحدة نصف ريال ، ولضيوفها أن يجيئوا بما يشاءون من طعام وشراب ، وعليها هى أن تعد لهم الأوانى والأدوات وما إليها ، وأن تقوم بما تقتضيه الخدمة . وكان أصدقاؤها كثيرين فسرهم هذا وارتاحوا له وأقبلوا على « ناديها » ليساعدوها ، وآثروه على الأندية المفتوحة بلا قيد ولا شرط ، أو كما قال بعضهم : « لكل من هب ودب » فصلح حالها بذلك حتى لقد احتاجت أن تنتقل الى شقة واسعة كثيرة الغرف والشرفات . وصار المسلمون — على الأيام — خير زبائنها وأسخاهم يدا ، فقد كان أكثر من عداهم يحمل معه ، وهو خارج ، ما بقى من طعامه وشرابه ؛ أما أولئك فقد كانوا يتركون الباقى ، ولا يفوتهم أن يحسنوا تجزية الخادمات ؛ وكثيراً ما كانوا يكلون الى « صفية » أعداد الطعام والشراب اللذين يريدونهما ، فيكون لها من ذلك ربح آخر . وقلما كانوا يكتفون بنصف الريال المطلوب

ولم تكن « صفية » كبيرة السن أو دميمة ، ولكنها كانت قد فاتت سن الاقبال عليها من الشبان وبلغت سناً تحتاج فيها الى المحاورة والمداورة ، وتأكيد المحاسن ، وإبراز المفاتن ، فكانت لا تزال تدخل غرفة وتخرج من أخرى ، وتحيى هذا وتلاطف ذاك ، وتحمل بيدها البضة الكوب أو الطبق لتجىء بغيره ، وتنحى الخادمة وتلقى الابتسامات هنا وهناك ، وتخطر فى شغوفها المحبوكة التفصيل . ومن

أدرى منها بابراز خطوط الجسم الجميل ، واستدارات القد الرشيق ، وإكساب الأنداء والأرداف فتنة فوق فتنتها الطبيعية ؟

وكان بعض ضيوفها يأتون فرادى اكتفاء بما يعلمون أنهم يفيدونه عندها على كل حال من الأنس والبهجة ، فما كان يدخل هذا البيت غريب عن رواده ، فكان المستفرد الوحيد يستطيع أن ينتقل من مجلس إلى مجلس ، وأن يعابث أو يضاحك أو يسامر أو يراقص من شاء . وكان من هؤلاء عبد الحميد — أو عبده كما كان يسمى فى العادة — ولم يكن يعرف من الموجودين إلا اثنين — « دافيد » الذى جاء به « ورشحه » فى مرة سابقة ، و « صفية » ربة البيت . وكانت « صفية » قد أعجبها شكله ووقع من نفسها هدوؤه وسكون طائره فى الأغلب ، وما يبدو عليه من قوة الجسم والارادة معاً . وكان قليل الشراب نزر الحديث ، ولكنه لم يكن على هذا لا جامداً ولا فاتراً ولا صارم الجد ، فكانت صفية تقبل عليه وتحاول أن تحل عنده محل الصاحبة التى لم يجىء بها ، ولا تتركه إلا لحظات قصيرة للعناية بغيره إذا بدت لها حاجة الى ذلك . وقالت له مرة :

« لماذا تجىء وحدك ؟ »

فلم يدر ما مرادها ، ونظر إليها — آثارها النظر — قبل أن يجيب ثم آثر الملاطفة فقال :

« وهل أنا وحدى ؟ »

فسرها جوابه ، وظنت أنه قانع بمجلسها وحديثها ، وراحت تمنى نفسها الأمانى ، فقد توسمت فيه — من مظهره — الغنى ، وأنست من سيرته الجود . وإنها لتهم بكلام مناسب ، وإذا بالباب يفتح ، وإذا باثنين يدخلان — رجل وفتاة — وكان لا شك فى أن الرجل سكران طافح ، فما كانت رجلاه تحملانه إلا بجهد ، وإلا بفضل الفتاة التى تسنده وتقوم اعوجاجه . ولم يكد عبده يراهما حتى نهض وتناول ذراع الرجل وقال له بحدة :

« ما هذا الذى صنعت بنفسك ؟. كيف تجرؤ أن تجىء إلى هنا وأنت على هذا الحال ؟ »

فقال الرجل وهو ينحط على أقرب كرسى :

« إيه ؟ مالى ؟ »

فقال عبده : « ألا تخجل أن تحمل هذه الفتاة عبء جسمك الثقيل ؟ »

فزام الرجل وأدار عينه فى الغرفة ، ثم كأنما أحس أن جفونه ثقيلة ، فأغمض عينيه ، ورد رأسه إلى ظهر الكرسى ، فهزه عبده هزاً عنيفاً ، وصاح به يدعوه أن يتنبه ويفيق ، فأشار إليه الرجل أن يبعد عنه ، فعاد عبده يقول كأنما يحدث نفسه :

« ولكن الفتاة ؟. كيف تكلفها أن تحتمل منك هذا الحال ؟ »

فقال الرجل : « مالها ؟ إنها رابحة على كل حال »

فدهش عبده ونظر منه إلى الفتاة ، ثم كأنما خطر له خاطر فقال لصفية : « اجعلى بالك إليه .. إنه صديق لى . اعتنى به . أرجوك »

والتفت إلى الفتاة وقال لها : « تعالى معى .. إن بقاءك معه وهو على هذه الحال لا يليق .. تعالى نقف فى الشرفة »

وأشار إليها فمشت أمامه إلى حيث أومأ ، فلما صارا وحدهما قال لها : « هل جئت إلى هنا من قبل ؟ »

قالت : « أبدا »

قال : « هل تعرفين أحد هذا ؟ »

قالت : « عرفته اليوم من صديقة لى »

قال : « من أنت ؟ »

قالت وهى تبتسم : « إنك شديد الفضول »

قال « لأن تعرفى صاحباً بى ما يقول ويفعل ، خير فيما أظن من أن تعرفى من لا يكاد بى »

فضحكت ضحكة رقيقة خافتة وقالت : « أظن أن الأمر على العكس ! »

فقال : « هل تعنين أن تقولى إنه لا يعرف من أنت ؟ »

قالت : « هذا ما أعنى . إنك ذكى »

قال : « وماذا كان يعنى بقوله إنك رابحة على كل حال ؟ »

فأطرقت قليلا وقالت : « إن اهتمامك هـذا بأمرى يسرنى ، ولكن هل من الضرورى أن تمضى فى التحقيق إلى النهاية ؟ »

قال : « عفواً ولكن الكلمة عجيبة ... وأنا أخشى أن تكون .. أن يكون .. »

وأمسك . وماذا عسى أن يقول ؟ إن هـذه أول مرة يلقاها فيها ، وليس من اللائق على كل حال أن ينتحل لنفسه حق القيم عليها ؛ ولكنها كانت جميلة ، وكانت ثيابها تدل على النعمة والترف ، وقد تجد كثيرات يلبسن من الثياب أغلاها وأنفسها ولا يكن مع ذلك فيها إلا كالمستعيرات لها ؛ أما هذه الفتاة الصغيرة السن فيبدو للناظر إليها — من النظرة الأولى — أنها ألفت النعمة والترف ، وأنها نشأت فى أحضانهما . وكان قوامها ليناً ، وقدها صغيراً ؛ وكان ثدياها راسخين من غير أن عسكهما أو رفعهما شىء . وقد وقعت عين عبده عليهما ، أول ما وقعت على شىء فيها ، ففطن إلى دلالة ذلك وأدرك أن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون إلا غريرة على الرغم من ذلاقة لسانها . وهل يعقل أن يظل الثديان راسخين على الرغم من امتداد الأيدى اليهما وكثرة العبث بهما ؟ أبدا .. أبدا ... كذلك كان يحدث نفسه وهو يكلمها ويحدق فى وجهها الدقيق المعارف ، المشرق الديباجة ، الصابح ، بغير معونة من المساحيق . وسره على الخصوص أنه لم ير على شفتيها أثراً للأحمر وأن حاجبيها طبيعيان

وقال لها : « ما اسمك ؟ »

فضحكت وقالت : « لكأنك أبى »

فقال : « لا تضحكى .. واسمعى .. قد يكون فضولى ثقيلا .... ولكن مجيئك مع هذا السكران ... »

فقاطعته : « هل المجىء الى هنا عيب ؟ »

فقال : « لا . لست أزعم ذلك .. إن المكان لا عيب فيه ... نادٍ لا أكثر ولا أقل ... ولكنه خاص ... ليس لكل الناس ... ولكن أين كنت مع أحمد ؟... أين سكر الى هذا الحد ؟.. »

فقالت : « اسمع ... إنى كذبت حين قلت إنى عرفته من صديقة لى ... الحقيقة أنى لم أره إلا منذ ربع ساعة ... أى قبل أن ندخل هنا بدقائق »

فقال : « هـذا أدهى ... كيف اتفق ذلك ؟ أعنى هل عادتك أن تمرقى من يشاء أن يعرفك ؟ »

قالت : « لك العذر . وعبث أن أقول شيئا . هل تسمح لى أن أخرج ؟ »

فاعتذر اليها ، ولكنه ألح عليها أن تقول له ماذا كان أحمد يعنى بقوله إنها رابحة على كل حال

فقالت ببساطة : « أقول لك الحق إنى لا أدرى . إنه صاحبك فسله بعد أن يفيق »

وهمت بأن تمضى عنه ، فتعلق بها وراح يطالبها بأن تقول له كيف جاءت الى هنا مع أحمد ؟ فقالت هل تصدقنى إذا قلت لك إنى أنا مستغربة ، وإنى لا أعرف كيف اتفق أن يحدث هذا ؟ »

فأحس من نبرة صوتها أنها صادقة ، وقرأ فى عينيها الصراحة فقال لها : « مالك ؟ حدثينى »

فابتسمت ، ولكن ابتسامتها كان فيها من

الكآبة أكثر مما كان فيها من السرور ؛ وقالت : « هل أروى لك قصة حياتى منذ ولدتنى أمى ؟ »

فقال : « يسرنى أن أصغى »

قالت وهى تضحك : « ليس الآن ... يجب أن أخرج ... لقد كنت مجنونة ... أشكرك على عنايتك بى .. فضولك رد إلىّ العقل ... نعم كنت مجنونة ... لا بأس ... حصل خير ... فهل أعتمد عليك ؟ هل تسمح أن تخرج بى ؟ تخرجنى ؟ يجب أن أعود »

فقال : « تعالى » ومضى بها الى باب الشقة ، ولم يعن بأن يحيى صفية وهو خارج ؛ وكانت صفية تنظر اليه والى الفتاة بعين النقمة والحنق ، فقد ساءها منه أنه وكل اليها العناية بصاحبه السكران وينصرف هو عنها . وجعلت تسأل نفسها لماذا لم يكل هذه العناية الى الفتاة وهى كانت معه ؟ ... كيف يرمى عليها هذه الجثة ، ويروح هو يخطف الفتاة من صديقه ؟ وأسرّتها فى نفسها وحقدتها ، فقد كانت لها مآرب فيه

وحاول عبده أن يقنع الفتاة بأن تذهب معه الى السينما ، فقد كانت الساعة دون التاسعة ، ففى الوقت متسع ، أو أن يتمشى معها فى شوارع غمرة وهى مضاءة ولكنها كالظلمة ، وكانا قريبين من هذا الحى ، ولكنها أبت وأصرت على العود الى البيت ، ورجت منه ألا يرافقها ، وأخيراً — وبعد اللتيا والتى — رضيت أن تقيد رقم تليفونه وأن تعد بأن تكلمه « يوما ما »

* * *

تركها وهو لا يعرف من هى ، وهى لا تعرف من هو . فأما هو فألح عليها بلا جدوى أن تخبره من عسى أن تكون ؛ وأما هى فلا تحتاج أن نقول إنها لم تحاول أن تعرف اسمه . وكان من الغريب أن يذكر لها رقم تليفونه وينسى أن يذكر لها اسمه ، وأن تقيد هى الرقم ولا تسأل عن الاسم الذى ينبغى أن تذكره وتطلب أن تكلمه ! ولم تكد تغيب عن نظره وتذهب إلى حيث لا يدرى ، حتى فطن إلى هذا السهو ، وأيقن أنه قد فقدها الى الأبد ، إلا أن يشاء الله أن يلتقى بها اتفاقا فى الطريق فراح يعدو فى الشوارع كالمجنون لعله يدركها ، ولكنه لم يكن يعرف أن بيت قريب لها فى هذه الناحية ، وأنها دخلته قبل أن يدرك مافاته ويشرع فى العدو ... احتياطاً منها لهذا ...

ومن المبالغة أن نقول إنه أحبها ، فقد كانت حصانة نفسه عظيمة ؛ ونعنى بذلك أنه لا يعشق من النظرة الأولى ، وأن تجاربه علمته الحذر ، وعودته الشك والاسترابة ، ومالت به إلى تلقى الحياة كما يتفق أن تكون وبغير احتفال كبير ، ولكنه لا شك فى أن هذه الفتاة وقعت من نفسه واستولت على جانب منها ، أو احتلت مكاناً فيها . وكان يعرف فتيات كثيرات يأنس بهن ويسر بمجلسهن ، ويقضى الساعة والساعتين معهن فى سمر وضحك ولعب ؛ وكانت له سيارة لا هى بالفخمة جداً ، ولا بالتى يحق لأحد أن يزدريها ؛ وكان يؤثر أن يحمل التى يتفق أن تكون معه إلى حيث يشاء هو ، ولا يخطر له أن يسألها أين تحب أن تذهب ، ولا يترك لها الخيار ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك عن جفوة فى طبعه ، أو عجرفة أو ما يجرى هذا المجرى ، بل لأنه اعتاد أن يكون الزمام فى يده ؛ ولكن هؤلاء الفتيات اللواتى يعرفهن كن لا يعجبنه ولا يرضى بهن ذوقه ، وكان بعض إخوانه الذين يعرفون سلامة ذوقه يقولون له : « ماذا يعجبك فى هذه ؟ » — مثلاً — فيقول وهو يضحك : « ليس لى فى الأمر خيار ... هذا ماوفقنى إليه الله ...

وعصفور فى اليد خير من ألف على الشجرة » ، وكان يدرك أن إخوانه على حق ، وأن اللواتى يعرفهن لسن أهلاً لأن ينفق فى سبيلهن وقته وماله . . ولكن ماذا يصنع ؟ . أنى له أن يصل أسبابه بأسباب فتاة من الطراز الذى هو أحب إليه ؟ إن هذا يتطلب أن يعيش المرء للمرأة ، أى أن يجعل همه وكده أن يتصل بالنساء . وهذا ممكن ، ولكنه عسير عليه ، فقد كان هناك عمله ، وخليق به اذا أهمله أن يفقد رزقه . وكان فيه فوق ذلك حياء ، كان فى أول الأمر شديدا ، ثم غالبه وقهره ، إلى حد كبير ؛ غير أن حياءه لم يذهب وإنما بقى كامناً ؛ فكانت تعتريه منه نوبات — إذا صح هذا التعبير — تفسد عليه كل ما عالج به نفسه وراضها عليه أو ظن أنه راضها عليه . وكانت هذه الفتاة التى رآها فى بيت « صفية » من الطراز الذى يشتهيه ويصبو إليه — الجسم الصغير والقد المعتدل والخلق المستوى — وشام الخير من لحاظها ، وآنس من كلامها الرشد . ولا ريب أن مجيئها مع أحمد — ذلك السكران — كان خفة وطيشاً ، ولكنه صدق أنها جاءت معه لا تدرى كيف . . ومن يدرى ؟ لعل نوبة اضطراب نفسى عرتها فأقدمت على ما كانت خليقة أن تحجم عنه لو كانت متزنة الأعصاب . . على كل حال قد ذهبت الآن . وأكبر الظن أنها لن تلقاه . . حظ ! ! درة ظل حياته يغوص على مثلها فى لج الحياة ، ثم لم يكد يظفر بها حتى حرمها . . ولكن هل هى درة ؟ . بلا شك ! . ولم يعجبه هذا التسرع ، وقال لنفسه : إن شعوره بالحرمان الذى مُنى به هو الذى يحمله على المغالاة بقيمتها . واقتنع بهذا — اقتنع عقله بأن الحسرة والأمل هما اللذان يميلان به الى المبالغة والتعجل والقول بما لا يعلم — ولكن شعوره مع ذلك بقى كما هو فلم يضعف اعتقاده بأنه فقد درة

ومضت الأيام ، وكان قلما يتلبث فى مكتبه لكثرة ما تحوجه أعماله إلى الخروج . وكان إخوانه يقولون له محتجين عليه : « يا أخى أين تذهب ؟ . كلما جئنا أو سألنا عنك بالتليفون قيل لنا خرج » فيقول لهم : « وما حيلتى ؟ . مطالب العمل تضطرنى إلى النط هنا وهنا ؛ ولا سبيل إلى إنجاز أعمالى إلا إذا تعهدتها بنفسى » ، ولكنه بعد أن قابل الفتاة وجد الوسيلة إلى القعود والاستغناء عن الخروج ، واكتفى بالتليفون ومساعديه فى المكتب . وكان قلما يغادر الغرفة التى فيها التليفون مخافة أن يتفق أن تكلمه فلا يحسن غيرُه جوابها لأنها لا تعرف اسمه . . فتالله ما كان أحمقه ! . كيف تركها تذهب قبل أن تعرف اسمه ؟ ولم يكن طريقه من غمرة ولا غيرها مما هو قريب منها ، فقد كان بيته فى شبرا ، ولكنه صار يذهب إلى شبرا عن طريق غمرة ، ويجوب بسيارته كل شارع وزقاق فى هذا الحى . وكان كثيراً ما يترك السيارة ويمشى على مهل وعينه إلى النوافذ والشرفات . وكان ربما قال لنفسه : إنه أبله ... ومن أدراه أن بيتها فى هذا الحى ؟ ثم يعود فيقول لنفسه : إن هذا هو الأرجح . فقد قالت له إنها التقت بأحمد قبل أن يدخلا بيت صفية بدقائق ؛ والمعقول أن تكون راجعة الى بيتها ، وإلا فماذا كانت فتاة مثلها تصنع فى حى غمرة فى الساعة الثامنة مساء ؟ . ثم يعود فيقول لنفسه : لعلها كانت عند قريب لها أو فى بيت نسيب أو صديقة ؟ . ولم يمنعه هذا الاضطراب أن يظل يجوب الحى كل يوم ، وكل ليلة ، مرات ، ولكنه لم يفز بشىء

وقال لنفسه عصر يوم وهو ماض الى مكتبه فى شارع عبدالعزيز : « القاهرة واسعة ... فيها مليون

وربع مليون نسمة فلا أمل فى لقائها إلا بمعجزة ... وأولى بى أن أكف عن البحث فانه عناء باطل ... ولأسهل من ذلك أن ألتمس إبرة فى كوم من القش ».

وكان قد بلغ العتبة الخضراء فتذكر أنه لم يحلق ذقنه ، فترك السيارة الى جانب الرصيف الأيسر المحاذى لخط الترام ، وذهب الى دكان حلاق وهو يحدث نفسه بأنه سخيف . . يخرج من البيت من غير أن يحلق . . « لنفرض انى التقيت بها فهل أقابلها بهذا الوجه القذر ؟ . » وضحك من نفسه وهو يقعد على كرسى الحلاقة وقال — لنفسه طبعاً — : « يعنى خلاص ؟ . لم يبق إلا حلاقة الذقن ؟ . أهذا كل ما كان يمنع ان ألقاها ؟ . أما إنى لسخيف »

وكان يبتسم والحلاق يجرى الموسى على صفحة خده فيضطر أن يرفع يده حتى يعود جلد الوجه الى الملاسة بعد التقبض . ومن يدرى ماذا كان الحلاق يقول لنفسه وهو يرى هذا الزبون الطارىء يبتسم أو يعبس بلا مناسبة ؟ . . .

وخرج ومشى مطرقاً الى السيارة ، ووقف أمام بابها ليفتحه ، ويركب ، وإذا به يرى الفتاة واقفة على رصيف الترام ! . وكانت وحدها أيضاً ! . أو على الأقل لم يكن الى جانبها أحد لا من هنا ولا من هنا ... فذهب يعدو إليها وقال لها وهو يهيج — لا من الجرى بل من الاضطراب العصبى — وقلبه يدق كالمطرقة

« أنت فين ؟ . هلكتنى »

فالتفتت إليه مستغربة ، أول الأمر ، ثم عرفته فقالت ببساطة : « آه ... أهو أنت ؟ . سلامات »

قال : « سلامات إيه وهباب إيه ؟ . يعجبك كده ؟ . أنا مت . . »

فقالت بدهشة — وقطبت — « مت ؟ . لست فاهمة . . معذرة »

فأدرك أنه تهور ، وانه لا معنى لتحميلها تبعة ما لقى فى تلك الأيام . وكان القلق الذى فى قلبه قد هدأ ، وأنفاسه قد انتظمت فقال : « معذرة . . لا تؤاخذينى . . إنما عنيت انى تعبت فى البحث عنك . . أوه كل يوم ... وكل ليلة ... لم أدع شارعاً من شوارع عمرة إلا مشيت فيه مرات بعدد شعر رأسى »

فقالت : « عمرة ؟ . (وضحكت) إن بيتى فى المنشية ... ولكن لماذا أتعبت نفسك ؟ »

وكانت عيناه قد اتسعتا جدا ، وهو يسمعها تقول ان بيتها فى المنشية ؛ ثم فطن الى ما فى ذلك من سخر القدر ، فابتسم وقال لها : « لأنك أخلفت وعدك ... ألا تذكرين ؟ . ما علينا ! . والآن قد وجدتك فالى أين ؟ »

قالت : « إنى ذاهبة لشراء أشياء »

قال : « أحملك فى سيارتى الى حيث تريدين فانى أكره أن أكلمك فى الطريق . . . لأجلك لا لأجلى »

وأقنعها فركبت معه ، وقال لنفسه إنها دقائق ليس إلا ، فلأبح لها بما أجن من الشوق ، وراح يصف كيف كان يصبو إليها ، ويتلهف على رؤيتها ، وكيف كان ينتظر بجانب التليفون كل يوم ساعات ؛ وكيف كان يمشى فى عمرة محدقا فى البيوت ، أى فى شرفاتها وشبابيكها ، ويصطدم بالناس والأشياء ولا يبالى أو يعتذر

وكانت تنصت ولا تقاطع ، فلما فرغ قالت له : « هل تريد أن تضحك على ؟ »

قال وهو كالمذهول : « أضحك ؟ »

فقالت وقد أيقنت من هيئته أنه صادق : « انى أصدقك ... ولكن أليس هذا غريباً ؟ . . انه

مفاجأة لى أنا على الأقل »

فقال بإخلاص : « لقد كانت مفاجأتى أنا أقوى ... لم أكن أتصور أن يحدث لى هذا ... أن أحب من النظرة الأولى ... كان هذا يبدو لى مستحيلاً ... ولكن الأيام توالت وأنا لا أزداد الا شغفاً ... لم يفتر شوقى اليك وذكرى لك ... لم تبهت صورتك ... بل صارت أقوى وأسحر ... لا أدرى كيف ... »

فقالت فجأة : « اسمع ... اذهب الى الجزيرة »

فكاد يطير من الفرح ، وبلغها فى أوجز وقت ، ولم يعبأ بالمارة ولا بشرطة المرور ؛ وكانت تبتسم إذ تراه لا يتكلم ولا يعنى بشيء إلا أن يبلغ الجزيرة فى مثل ومض البرق . ووقف هناك فقالت : « لا ... يحسن أن تمشى على مهل ... أو قف ... لا بأس ... »

وسره وهو جالس إلى جانبها فى السيارة أن يسمعها تقول له : « إنى أخشى سوء ظنك ولذلك أرى أن أروى لك قصتى ... لن أذكر أسماء ... القصة فقط ... »

فهز رأسه مغتبطا ... أليست قد صارت يمنيها أن يحسن رأيه فيها ... حسبه هذا ... »

وروت له قصتها فقالت : إنها كانت مخطوبة لشاب من أسرة كريمة غنية ، وإنهما تحابا بعد الخطوبة ، فما رأته قبلها ، ومضت الأيام وكرت الليالى ، وكانت تلاحظ مستغربة أنه لا يذهب معها الى سينما أو مسرح ، أو يخرج معها للتنزه ، وكان يعتذر دائما بالعمل وضروراته ، فكانت تقبل عذره ولا تلح عليه ، ولا تعير الأمر أدنى تفكير ، حتى كانت الليلة التى رآها فيها فى بيت صفية ، وكانت فى السينما مع أمها ، وإذا بخطيبها يدخل وذراعه حول ذراع فتاة اسرائيلية — هى اسرائيلية على التحقيق ، سحنتها تدل على ذلك — وكانت الأنوار قد أطفئت لأن السينما كانت قد بدأت فجلسا وراءها ، فلم يبق لها عين ترى السينما بها ، ولا عقل يفهم ، ولا أذن تسمع إلى ما يهمس به خطيبها فى أذن صاحبته فسمعت ما فهمت منه — على الرغم من تقطع الكلام وضجة السينما ، أنه سيظل وفياً لها لا يتخلى عنها ، وأن ما سمعته عن زواجه أو وشك زواجه كذب وافتراء ، وأن كلام الناس كثير ، وهل هو مجنون حتى يتزوج هذه المعصوصة الممروقة ؟

ولم تستطع أن تسمع أكثر من ذلك لأن الدم صعد الى رأسها فدار ، ثم نهضت واعتذرت الى أمها بأنها مريضة وأنها ستذهب الى البيت لترقد . همست بهذا فى أذن أمها ... وتركتها قبل أن تستطيع أن تقول شيئا ، وخرجت كالمجنونة ، وظلت ماشية على غير هدى ، ولم تدرك أنها فى حى غمرة إلا بعد أن خرجت من بيت صفية ... وكل ما تعرفه عن هذا السكران — أحمد — أنه لف ذارعه بذراعها — لا تدرى ولا تذكر كيف — وأنها صعدت معه فما كان فى رأسها عقل ... هذه هى القصة . . وقد انتهى كل ما بينها وبين خطيبها . . لم تقل شيئا لأمها ولا لأبيها . . اكتفت بالاصرار على الرفض . . فتركاها وشأنها لما رأيا عنف الاصرار ، ولأنهما أدركا أن الأمر لا شك خطير . . وقالت له أخيرا إنها شاكرة له وحافظة لجميله ، لأنه رد اليها عقلها فى تلك الليلة

ولما فرغت من قصتها أدهشها بقوله : « تزوجينى ! »

فلم تستطع أن تقول أكثر من « أ . . أنت . . إيه ؟ . . »

فلم يحفل باله الى دهشتها ، ولو حفله لكان خليقا أن يحس مما يفتر من حماسته ، بل أعاد الطلب : « تزوجينى »

فقالت : « إنك مدهش ! »

قال : « كلا .. إنى أحبك ، وقد عانيت فى الأيام التى افتقدتك فيها ما علمنى أننى لا أستطيع أن أحيا بدونك « فتزوجينى »

قالت : « وأنا ؟ ليس لى حساب عندك ؟ »

قال : « بالطبع .. ولهذا أقول تزوجينى »

فقالت : « أرجو ألا تسىء فهم ماأقول ... لو كنت أحبك لما وسعنى أن أتزوجك الآن . . . فقد يقال إنى تركت خطيبى من أجل رجل آخر »

قال : « ماذا تعنين برجل يقول عنك ماقال ؟ »

قالت : « لست أباليه ، وإنما أبالى الناس ... أهلى ومعارفى »

قال : « ماذا يعنيك منهم إذا كنت سعيدة معى ؟ »

قالت : « اسمع ... قبل أن تخف حدة الألم الذى أعانيه لا سبيل الى التفكير فى شىء »

قال : « مسكينة ! . ولكن هل معنى ذلك أن لى أملا »

قالت : « من يدرى ؟ ثم إنى لست أبى »

قال : « أبوك ... آه أبوك ! . ولكن ماله ؟ »

قالت : « قد يكون له اعتراض »

قال « : اعتراض على سعادتك ؟ . أم تريدين أن تقولى إنك لا تعرفيننى ؟ . معك الحق »

وعرفها بنفسه وأفضى اليها بكل ما يمكن أن تحتاج الى العلم به ، ولكنها مع ذلك رجت منه أن يعفيها من حديث الزواج فسكت ، واكتفى بوعد منها بأن تلقاه من حين الى حين

وصارا يلتقيان كل بضعة أيام مرة ، ثم كل يومين ، ثم كل يوم ، وأخيرا خطبها الى أبيها وتزوجا ومر عام وجاء الصيف ، فانتقل عبده و« عايده » — فقد آن أن نعرف اسمها كما عرفه زوجها — الى الأسكندرية ، واستأجرا هناك شقة مفروشة فى « الرمل » قريبا من البحر ، فدخلت عليها يوما صديقة لها من عهد الحداثة اسمها « زكية » وكانت شديدة العناية بثيابها وعطورها ، مسرفة فى حبها للسباحة والرقص ؛ وكان هواها هذا يثير لغطا كثيراً حول اسمها ، ولكنها كانت لا تبالى ذلك اعتمادا على مالها وجاه أسرتها ؛ وكانت تعتقد أنه يسعها أن تفعل ما تشاء ، لا ما ينبغى ، فكان أترابها يحسن استقبالها فى بيوتهن ، ويتقين أن يخرجن معها ، مخافة أن يمتد اليهن القيل والقال ؛ ولم يكن فيها سوء ، ولكن استخفافها بالتقاليد وافراطها فى استعمال حريتها ، كانا عظيمين ؛ ولم تكن كل فتاة يسعها مايسع زكية . وكان معروفا عنها أنها تجرى مع أول الخاطر ، وأنها أصرح مما ينبغى ، فكان لسانها يفسد عليها مزايا الصدق والصراحة وطيب القلب ؛ ولم تكن تبالى أن تحشر نفسها فيما لا يعنيها ، ولم يكن هذا عن فضول بل عن إخلاص وغيرة ، ولكن دخولها فى شؤون غيرها قلما كان يحلو للناس

وقالت لعايدة وهى تجلس على كرسى : « ما أبهاك اليوم يا عايدة ! . يظهر أن الزواج زاد حسنك نضارة »

وابتسمت وهى تخرج من حقيبتها الصغيرة علبة مذهبة مرصعة فتحتها وأخذت منها سيجارة مذهبة الفم أشعلتها وراحت تدخن وتنفخ

وقالت عايدة : « وأنت ؟ إنى أراك نرجسة ! . هذا الثوب وحده حلم جميل . . . لم أرك منذ أيام ! فماذا كنت تصنعين بنفسك ؟ »

قالت زكية : « دعينى وقولى لى أين عبده ؟ »

قالت عايدة : « عبده ؟ .. إنه فى مصر ... له ثلاثة أيام هناك ... تعرفين العمل وضروراته »

فقالت زكية وهى تنفخ الدخان وقد شردت

نظرتها : « العمل ... إن العمل لا يمكن أن يقصى الرجل عن فتاة لها مثل جمالك وسحرك ... شيء واحد هو الذى ينأى به عنها ... امرأة أخرى ! »

فبهتت عايدة وحملقت فى وجه صاحبتها بعينيها الواسعتين ثم قالت : « هـذه سخافة يا زكية ... لا ينبغى لك أن تظنى هذه الظنون بعبده ، ومن باب أولى لا يجوز مثل هذا الكلام عنه »

فقالت زكية بلهجة المُصرّ : « ألا يجوز لى ذلك ؟ حسن . اسمى إذن . واذكرى أنه ليس لى غاية أبغيها من وراء ما أقول ، وأنه ليس أحب إلىّ من أن تكونى سعيدة موفقة ... ولـكنه يبدو لى أن من واجبى أن أعرفك أن عبده على صلة بامرأة هى الخطيئة مجسدة

فربعت عايدة ، ووثبت الى قدميها وأحست أن رأسها يدور ، ويدور ، فاعتمـدت على ظهر الـكرسى وامتقع وجهها ونظرت الى زكية مبهوتة

فقالت زكية : « صحيح يا عايدة ! . . لقـد رأيتهما معا البارحة فى سان جيمز ... وسمعت حديثهما أيضاً ، فقد كنت قريبة منهما أراهما ولا يرياني ؛ وكان مما سمعته : « إن زوجتى لايجوز أن تعرف شيئاً من هذا أبدا ، فليبق بينى وبينك فقط » ثم أخرج من جيبه خاتما لا أدرى ماذا يساوى ولـكنه على كل حال لا يمكن أن يكون من قصدير . والآن قد عرفت الحقيقة ، فماذا تنوين أن تصنعى ؟ »

وكانت عايدة تنظر إلى الأرض ، أو الى قدميها ، فلم تجب ، فأعادت زكية السؤال ، فقالت عايدة :

« أصنع ؟ تسألينى ماذا أنوى أن أصنع ؟ . ليس هناك سوى شيء واحد أستطيع أن أصنعه ... أغادر الاسكندرية حالاً ! . ولن آخذ معى شيئاً ... إنتهى كل شيء »

فنهضت زكية وقالت : « لا تكونى سخيفة ... إن فى وسعك أن تردّيه إليك إذا أحسنت السياسة .. الأمر يحتاج إلى كياسة وحسن تدبير ... ولم أقل لك ما قلت لأفسد عليك حياتك ، بل لأنبهك الى الخطر لتعالجيه بالحـكمة »

فصاحت عايدة : « أتظنين انى أقبل ان أظل مع عبده بعد هذا ؟ . بعد ان خانتى ؟ . كلا ... ولو ظل يتوسل إلى على قدميه سنوات ! . يعطى خاتماً لمومس ، وما مضت على زواجنا سنة واحدة ؟ هه ؟ ... ويحذرها أن يتصل بى الخبر ؟ . » وتحدرت الدموع على خديها « إنى أحب عبده ... حبه يملأ قلبى ، وكان حبه يعمر صدرى ... أتظنين بى أنى أتدنى وألجأ الى الحيل لأستعيد حبه لى ؟ . أألوّث نفسى لأنتزعه من هذه المرأة ؟ . كلا ! الحب الذى يذهب لا يعود ! . والنار التى تخمد كيف يرجى أن تعود مضطرمة ؟ . لقد مزق عبده قلبى ! . إقتلع أحشائى من جذورها . ولا أستطيع ان أغتفر له هذه الخيانة »

وغلبها البكاء ، وتساقطت عبراتها ، واضطربت شفتاها ، وعجزت عن الكلام . ثم أحست يداً على كتفها ، وصافح سمعها صوت عبده :

« أنا خائن ياعايدة ؟ . كيف اكتشفت خيانتى ؟ . مهلاً ... لقد سمعت كل كلمة »

فقالت زكية . « أنا أخبرتها ... رأيتك تعطى تلك المرأة أمس خاتماً ، وشعرت أن من واجبى أن أنبه عايدة »

فقال عبده : « هل تسمحين بالخروج من هنا ؟ . ولا تكلفى نفسك عناء الرجوع مرة أخرى ! . »

فغضبت زكية وصار وجهها كالجمرة وقالت وهى تخرج : « هذه إهانة فظيعة »

فقال عبده : « إذهبى وسكنى أعصابك بالرقص مع أول رجل تصادفينه »

ثم دار وواجه عايدة فقالت وهي تنتحب :

« كيف تفعل هذا ؟ . كيف ؟ »

وحالت الدموع دون الكلام ، فقال عبده :

« إسمعي يا عايدة ... ان المرأة التي كنت معها في سان جيمز هي « صوفي » أو صفية ... هل تذكرين هذا الاسم ؟ . يظهر أنه كان لها مآرب فيّ ... وأنا لا أدري . ويظهر ان زواجي أحنقها ، وقد راحت تلغط وتتحدث بأني عرفتك في بيتها ... لا تبالي ، ان هذا طعن عليها هي قبل أن يكون طعناً عليك أو عليّ ... الحقد يعمي ويصم ... لهذا اضطررت أن أتألفها وأقيدها ... إستكتبتها إقراراً يضطرها الى قطع لسانها بعد اليوم ؛ وكان لا بد أن أداورها وأحاورها فانتقدتها مبلغاً من المال ... قليلاً في الحقيقة .. وأعطيتها خاتماً ليس له قيمة كبيرة ، لأني خفت عواقب لغطها ... سمعة المرأة كسمعة البنك ... »

وأخرج من جيبه ورقة ودفع بها الى عايدة

* * *

وقال عبده ، وهو يسير مع عايدة على شاطىء البحر :

« إني سعيد . . سرني ما حدث »

فاستغربت وقالت : « سرك ؟ لست فاهمة »

فقال بابتسام : « لأني لما سمعتك وأنا واقف في مدخل الباب ورأيتك تثورين هذه الثورة أيقنت أن حبك لي لا يمكن أن تنال منه الأيام أو تفتره الحوادث »

فقالت بخبث : « لا تسكن واثقا .. »

وذهبت تعدو أمامه ، وقد وسمها أن تضحك وتمزح ، فجرى وراءها ، وخاض الماء اليها ، وتناولها بين ذراعيه ، وضمها اليه ، وأهوى بشفتيه على شفتيها .

ابراهيم عبد القادر المازني

علمكم المصرى

يرفرف على

النيل و كوثر

فهما رمز بلادكم

سافروا عليهما تجدوا راحتكم المنشودة

غرف فاخرة .. طعام شهى .. خدمة كاملة

اتصلوا بشركة مصر للسياحة شارع ابراهيم باشا رقم ٤٩